

افتتاحية "وحدها شجرة الرمان":

كانت تنام عارية على دكة مرمر في مكان مكشوف بلا جدران
أو سقف. لم يكن هناك أحد حولنا ولا شيء على مد البصر سوى
الرمل الذي ينتهي عند الأفق الذي كانت تسرع نحوه، وتختفي فيه،
غيوم احتشدت بها السماء، تناوبت على حجب أشعة الشمس.
كنتُ عارياً وحافياً ومندهشاً من كل شيء. أحسستُ بالرمل تحت
قدمي وبريح باردة بعض الشيء. اقتربتُ ببطء من الدكة لأتأكد من
أنها هي. متى ولماذا عادت من الغربية بعد كل هذه السنين؟ كان
شعرها الأسود الطويل مكوّماً إلى جانب رأسها وقد غطت بعض
خصلاته خدها الأيمن، كأنه يحرس وجهها الذي لم تغيّره السنين.
الحاجبان مشدبان بعناية والجفنان مسبلان ينتهيان برمشيها الكثيفين.
كان أنفها ساهراً على شفثيها المليئتين وكانت مصبوغتين بلون وردّي
كأنها مازالت على قيد الحياة أو أنها ماتت للتو. كانت الحلمتان
منتفضتين فوق النهدين الكمثرين ولم يكن هناك أثر للعملية. كانت
يذاها مشبوكتين فوق سرّتها والأظافر طويلة مصبوغة بلون شفثيها
الوردي. عانتها حليقة وأظافر قدميها مصبوغة بالوردي هي
الأخرى. تساءلتُ في سرّي هل هي نائمة أم ميتة؟ خفتُ من أن

المسها . تفرّستُ في وجهها وهمستُ باسمها : ريم . فابتسمتُ
دون أن تفتح عينيها في البداية ، ثم فتحتها وابتسم السواد في
بؤبؤيهما أيضاً . لم أفهم ما كان يحدث . سألتها بصوت عال :
- ريم ! شتسوين هنا؟

- كنتُ على وشك أن احتضنها وأقبلها ، لكنها حذرتني :
- لا تبوسني . غسّلي أول حتى نكون سوّية وبعدين . . .
- شنو؟ بس بعلج طيبة . ليش أغسلج؟
- غسّلي حتى نكون سوّية . اشتاقتلك هوية .
- بس إنتي مو مية .
- غسّلي حبيبي . غسّلي حتى نصير سوّية .
- إيش؟ ماكو شي هنا؟
- غسّلي حبيبي .

بدأ المطر يتساقط . أغمضتُ عينيها . مسحتُ قطرة عن أنفها
بسبابتي . كانت بشرتها ساخنة مما يعني بأنها حيّة . بدأت أمسد
شعرها . سأغسلها بالمطر! ابتسمتُ كأنها سمعتُ ما فكرتُ به .
مسحتُ قطرة أخرى استقرت فوق حاجبها الأيسر . خيل إلى يأتي
سمعت صوت سيارة تقترب . التفّتُ فرأيتُ همفي تقترب بسرعة
جنونية وتخلّف وراءها ذيلاً من الرمل المتطاير . استدارت فجأة
وبعنف نحو اليمين وتوقفت على بعد أمتار منا . فُتحت أبوابها .

خرج أربعة أو خمسة رجال ملثمين يرتدون الخاكي ويحملون رشاشات وركضوا باتجاهنا . حاولتُ أن أحميها بيدي اليمنى ، لكن أحدهم كان قد وصل إلي وسدد ضربة قوية بأخمص رشاشته إلى وجهي وأسقطني أرضاً ثم ركمني في بطني وخصري وظهري

عدّة مرات . أخذ واحد آخر يجرتني من ذراعي بعيداً عن الدكّة . لم يقل أيّ منهم شيئاً . كنتُ أصرخ وأشتمهم لكنني لم أسمع صراخي . أجبّراني على أن أركع على ركبتيّ وقيداً معصميّ بسلك ثم وضع أحدهما سكيناً على عنقي بينما عصب الآخر عينيّ . تداخلت ضحكاتهم مع صرخات ريم وحشرجاتها التي سمعتها بوضوح . حاولتُ الإفلات منهما لكنهما كانا يمسكان بي بإحكام . صرختُ ثانية لكنني لم أسمع صراخي . كنتُ أسمع صراخ ريم وضحكات الرجال وآهاتهم وصوت زخات المطر . أحسستُ بالم حاد وبالسكين الباردة تخترق عنقي . سال الدم الحار على صدري وظهري . سقط رأسي على الأرض وتدحرج على الرمل ككرة . سمعتُ وقع خطي تقترب . نزع أحدهم العصابة عن عينيّ ووضعها في جيبه وابتعد بعد أن بصق عليّ . رأيت جسدي إلى يسار الدكّة راکعاً وسط بركة من الدم . كان الثلاثة الآخرون يعودون إلى الهمفي وإثنان منهم يسحلان ريم من ذراعيها . حاولتُ أن تدير رأسها إلى الورااء نحوي لكن أحدهم صفعها . صرختُ باسمها لكنني لم أسمع صوتي . وضعوها في المقعد الخلفي وأغلقوا الأبواب . سمعتُ صوت المحرك . ابتعدت الهمفي بسرعة واختفت في الأفق . وظل المطر يزنخ على الدكّة الخالية .

استيقظتُ لاهثاً ومبللاً بالعرق . مسحتُ جبهتي ووجهي .
نفس الكابوس يتكرر منذ أسابيع مع بعض التغييرات الطفيفة .
أحياناً أرى رأسها المقطوع على الدكّة وأسمع صوتها يقول :
غسلني حبيبي . لكن هذه أول مرّة يكون فيها مطر . أعرف مصدره
الآن ، فقد تسلل من الخارج هذه الليلة . سمعت صوت تساقطه

على زجاج النافذة بجانب سريري . نظرتُ إلى ساعتني وكانت
الثالثة والنصف صباحاً . لم أنم أكثر من ثلاث ساعات بعد يوم
طويل ومرهق . ممزّق بين الأرق وبين هذا الكابوس الذي لم
أحاول تفسيره أو فهم دلالاته . لكنّه يلح عليّ . لعله الموت
يضحك عليّ ويقول لي : ظننتَ أنك تستطيع أن تهرب منّي أيها
الأحمق؟

رأيتك يا أبي في المغيسل وكانت أول مرة أذهب فيها للعمل معك. لم يكن حمّودي معنا وكان الظلام سيّد المكان. كنت تحمل شمعة بيدك. سألتك: «لماذا لا ننتظر الصباح ثم نبدأ العمل؟» فابتسمت وقلت لي: «ليس هناك إلا هذا الليل.» استغربتُ وسألتك: «لماذا يا أبي؟» فقلت لي: «أنسيت يا ولدي بأننا في العالم السفلي وأنّ الشمس لا تشرق هنا؟» شعرتُ بغصّة ونزلت دمعة على خدي فمسحتها بيدك وعانقتني قائلاً بحنو لم أعهده منك من قبل: «لا عليك يا حبيبي، فالشموع تكفي كي نقوم بعملنا ونعيش عيشة شريفة وستألف نورها.» كانت أول مرة تقول لي فيها «يا حبيبي». طلبت منّي أن أتبعك وأريتني الدكّة وقلت لي: «هاهنا نعيد تركيب الأجساد التي يجيء بها الفرطوسي كل يوم.» استغربتُ أنّ الفرطوسي كان هناك أيضاً. أشرتُ إلى الدواليب التي لم أتبيّنها بوضوح وقلت: «الإبر والخيوط والصمغ هناك.» ثم أشرتُ إلى صناديق خشبيّة مكدّسة على الأرض وقلت: «الريش الذي نغطّي به أجساد الموتى في تلك الصناديق.» سألتك: «لماذا نغطّي أجسادهم بالريش؟» فابتسمت وقلت لي:

«أمازلت تكثر من الأسئلة يا ولدي؟ هذا ما فعله أجدادنا من قبلنا وما سيفعله أحفادنا من بعدنا.» خطوط خطوتين إلى أحد الدواليب وأخرجت منه شمعة وأشعلتها بلهب شمعتك ثم ناولتني إيّاها. أمسكتُ بها فأضاء النور مساحة أكبر من المكان. شاهدتُ

السيقان والأذرع المركونة في الزاوية فسألتك عنها. قلت لي إنها بقايا سنجد مكاناً لها في الأجساد التي تجيء كل يوم. سألتك عن أموري وحمودي وباسم والبقية. «هل هم هنا أيضاً؟» فلم تجب. شاهدتُ عيناً معلقة بخيط على الحائط تذرف الدموع. سألتك عنها فقلت لي: «إنها تحنّ إلى عين أخرى أو ربما تبكي على الشمس.» سألتك بصدق: «هل نحن أحياء أم أموات يا أبي؟» لم تجبني. نفختُ على شمعتك فأطفأتها وانطفأت شمعتي معها. بقيتُ وحدي في الظلام أسمع صوت الدموع تسقط من العين المعلقة إلى أن استيقظت ورأيت الشمعة التي كانت بجانب رأسي تتحرج وهي على وشك الانطفاء.

الفعل إيجابية. كان هناك فريق سينمائي بصور فلماً وثائقياً عن الدكتاتورية والاحتلال وأجروا لقاءات مع الكثير منا. كان أحدهم عراقياً يعيش في نيويورك وأجرى معي حواراً عن العمل. طلبتُ منه أن يرسل لي الحوار على قرص ممغنط ووعدني بذلك، لكن لم يصلني شيء ولا أدري إن كان نسيني أم أن الطرد سُرق في البريد. عُرضَ الفيلم الوثائقي بعد سنة على قناة العربية وبقيت أنتظر كي أشاهد ولو لحظات من اللقاء، لكن لم يظهر أي شيء منّي أو من المعرض بأكمله. كانت هناك لقطات للخراب الذي حل بالأكاديمية وكل النهب والتدمير وكانت هناك لقاءات مع بعض الشعراء في شارع المتنبي. كنتُ أشك كثيراً بهؤلاء القادمين من الخارج بعد سنين طويلة. فالكثير منهم جاؤوا مع الدبّابات والميليشيات أو جاؤوا لجني الأرباح والفوز بسبق صحفي أو فني ثم ينسوننا.

افترسني الحزن بعد شهر من المعرض حين شاهدتُ على شاشة التلفزيون رجالاً يبحثون عن جثة دي ميليو في ركام فندق القناة الذي كان مقر الأمم المتحدة في بغداد بعد أن هجمت عليه

فارغين فجلسنا وطلبنا شايًا. كان هناك فريق من محطة تلفزيون فرنسيّة يجري حوارات مع بعض المثقفين. شاهدت المخرج المسرحي صلاح القصب يجلس على بعد بضعة أمتار. اقتربوا منه وسمعته يعتذر عن الإجابة عن أي أسئلة لأكثر من مرّة. ألح مقدّم البرنامج وسأله المترجم: ماذا تقول عن كل ما حدث؟ فقال له: صوّر شوارع بغداد. هذا رأيي. بعد عشر دقائق لمح عمّي وجهاً

كان كل يوم من أيام الأسبوع صعباً وله مآسيه الصغيرة الخاصة بتفاصيلها، لكن الخميس كان الأصعب والأطول لأنه اليوم الذي تصل فيه ثلاجة الفرطوسي المحمّلة بحصاد الموت الأسبوعي. كل أولئك الذين يُقتطعون من عوائلهم وحيواتهم ويلقى بهم في المزابل على أطراف بغداد أو في النهر أو يتعفنون في الطب العدلي. معظمهم بلا أوراق أو هويّة ولا يعرف لهم

غسل مهدي يديه وذراعيه وبدأ يملأ طشتاً بالماء . بدأت أقص الكيس من الأعلى ونزلت إلى منتصفه فبرز الجانب الأيمن للرأس . كان الشعر الأسود مجعداً ومغبراً . أما بشرته فكانت صفراء باهتة وكان ذقنه غير مخلوق . أدخلت يدي ببطء إلى الكيس . كان ملمسه غريباً وبشرته متصلبة كأنها بلاستيك سميك . شعرت بالتقرّز وحملتُ الرأس إلى الخارج . احترتُ كيف أضعه على الدكّة . حاولتُ أن أضعه كما أضع رأس أبي ميت آخر لكنّه مال جانباً بحيث أصبح خده الأيمن على الدكّة . تنهد الرجل الواقف وحوقل . أما الشاب الجالس على المصطبة فغطى عينيه ودفن رأسه بين يديه . وضع مهدي الطشت على التخت العالي بالقرب

المهنة لسنين طويلة مثل أبي . كيف لي أن أستحمل كل ما يلقيه الموت؟

كنت مولعاً بالرسم وأخذتُ أمارسه بكثرة في ذلك الصيف الذي عملت فيه مع أبي . كانت ساعات انتظار الموت الذي لم أكن أحبه طويلة ومملة . ولم تعد قراءة الصحف والثرثرة مع حمّودي تكفي . كان الرسم ملاذاً ومهرباً من الاختناق الذي كنتُ أشعر به ليس بسبب الموت فحسب ، بل بسبب ملل المراهقة الذي كنا نحاول محاربته بمشاهدة التلفزيون ولعب كرة القدم . أدخلني الرسم إلى عوالم جديدة فعكفتُ ، بعد أن انتهت أسئلتي وملاحظاتي عن الغسل ، والتي ملأتُ بها أكثر من دفتر ، على رسم وجه أبي من زوايا متعدّدة في المغيسل وكذلك في البيت وهو يشاهد التلفزيون . لم يزعجه ذلك وكان أحياناً يمازحني قائلاً : «مو كافي؟ شنو آني صدام حسين؟» كانت صور صدام تملأ كل زاوية في البلد تلك السنين . كانت تقاطيع وجه أبي تستهويني كثيراً .

من الباب ثم يعودون ليغلقوه عندما يروننا في الداخل . كان يجمع أوراقه ويضعها في حقيبته عندما اقتربتُ وسألته عن جياكوميتي . كان قد عرض صوراً لعمل من أعماله بعنوان «رجل يمشي» أثناء المحاضرة لفت انتباهي وأثار إعجابي . ابتسم وهو يضع حزام حقيبته حول كتفه وقال لي : «ليش عجبك؟ شنو اللي عجبك بيه؟» ارتبكتُ قليلاً لأنني لم أكن أفكر كثيراً بالأسباب التي تدعوني لأن أحب عملاً فنياً . كان الجمال يضربني في الصميم بتلقائية . ترددتُ ثم قلتُ له : «ما أدري بالضبط ، بس حسيت الإنسان اللي نَحْتَه معزول وحزين .» ابتسم ولمعت عيناه وقال لي : «عَفِيَة عَفِيَة .

نحيفين أحدهما الذي رأينا صورته في المحاضرة . شدتني الصورة ولاحظ ذلك الأستاذ ، فنظر إليها مطوّلاً هو الآخر كأنه يراها لأول مرة وقال : «هذا هو صاحبك جياكوميتي بالاستوديو ماله .» سألتني عن خلفيتي وعن اهتماماتي واستمع بصدق إلى كل ما قلته . قال لي إنه من خلفيّة فقيرة لا علاقة لها بالفن وإنّ والده كان عاملاً بسيطاً في معمل ورق وكان يريد أن يكون مهندساً لا فناناً . سألته

بالإنكليزية . جلست أتصفّح الكتاب بشغف وأقرأ عن حياة جياكوميتي ومحطاتها المختلفة . كنت أنظر إلى صورهِ العائلية كأنه

أصبح أحد أقربائي بعدما فتنني أعماله وأردت أن أعرف الأسرار التي تكمن فيها. عرفت إنه ولد عام ١٩٠١ في سويسرا ومات عام ١٩٦٦ وبأنه عاصر الحربين العالميتين ولعل هذا يفسر الحزن الذي يكتنف أعماله. درس في باريس مع بورديل الذي كان قد عمل مع رودان وتأثر بالتكعيبية والسوريالية وأدرج اسمه مع نجومها لكن عمله كان من الاختلاف والتميز بحيث يصعب وضعه في خانة واحدة. كان هناك صفحة في الكتاب جمعت فيها مقولاته وظلت واحدة منها عالقة في ذاكرتي قال فيها: إن ما يريد أن ينحته هو ليس الإنسان، بل الظل الذي يتركه خلفه.

كانت تماثيله نحيفة بشكل غريب كأنها خيوط أو مومياءات نحيفة تم نبشها وإخراجها من القبور. كان الجسد دائماً عارياً وبأقل ما يمكن من التفاصيل. كما أنّ بعض الأعمال كانت ليد دون جسد تلوح لوحدها. بدا لي الإنسان في عالم جياكوميتي وحيداً وحزيناً، بلا معالم واضحة، يأتي من المجهول ويمضي نحوه.

